الصورة في الأدب المقارن" الصورولوجيا"

ارتبطت العلاقة التي تجمع " **الأنا** " " **بالآخر** " بعدّة ثنائيات، كـ : التراث والحداثة، الشرق والغرب، اندرجت ضمن سياقات تاريخية وفكريّة موسومة تارةً بالإخضـــاع والتبعيّة، وتـــارةً بالانبهار والإعجـــاب، الأمـر الذي يجعل العلاقة بين " **الأنا** " و"**الآخر** "، جدلية قائمة في الحياة، فلا وجود " **لأنا** " من دون " **آخر** " ولا " **آخر** " من دون " **أنا** "، فعلاقة وجودهمـا إلزامية سواء أكانت علاقة تنـافر أم تجاذب، فبالأنا يُعرف الآخر وبالآخر نحاول فهم الأنا، لدرجة أنّهما أصبحتا:« **ذاتان منفصلتان متصلتان في الوقت نفسه مفترقتان و متحدتان [...] فلا تكون الذات إلاّ بوجود الآخر وهذه بديهة (ربّما باستثناء الذات المطلقة ذات الإله)، والأمر بمجمله يشبه صفحتي ورقة لا يمكن فصل أحدهما عن الأخر**»[1]، أي أنّ علاقة هاتين الثنائيتين هي علاقة إلزامية، فصور الذات لا تتكوّن بمعزل عن صورة الآخر، كما أنّ صورة الآخـــر تعكس بمعنى صـورة الذات.

وعليه تصبح عمليّة نفي " **الآخر** " نفياً " **للذات** " في الوقت نفسه، لأنّ الآخر مكمّل "**للذات**"، ومن يختزل " **الآخر** " يختزل ذاته، ذلك أنّ الذات المتعدّدة تتطلّب وجود آخر متعدّد.

وبناءً على ما سبق يمكننا القول إنّه من الصعب تحديد مفهوم دقيق " **للأنا** " و"**الآخر** "، ولا تتم معرفة أنا / آخر من دون اختزالهما أي أنّ إحدى الإشكاليات، التي تمنح القطبية الأحادية لأنا ما أو آخر، هي أنّ هذا الذي تطلق عليه الأنا آخر غير واضح مثلها تماماً، و لا يوجد في سمة محدّدة، بل يستحيل تحديده إلاّ بتشويهه و اختزاله.

لا يمكن تجاهل الدور الذي يقوم به"**الآخر**" بشأن تصوّر الذات لذاتها، ولا يمكن تجاهل الصراع الذي يحصل بينهما سواء بوجهه الإيجابي أو السلبي، فإشكـالية العلاقـــة مع الغرب لا تزال تـأخذ بـعدًا مزدوجـاً فهـي بحث وتـأمل في "**الأنا**" وفي "**الآخر**"، فقد وصل العرب إلـى أنّ هذه العلاقة بـاعتبارهـا نـاتجة عن ردّ فعل دفاعـي اتجـاه سطوة واندفـاع الغرب؛ لذلك

1- العويدات (حسن): الآخر في الثقافة العربية من مطلع القرن العشرين، دارالساقي بيروت لبنان ، ط1، 2010،ص19.

لابد أن تمرّ بالضرورة عبر التفكير في الذات ومن ثمة العودة إلى التراث والبحث فيه، إمّا من أجل تمجيده أو من أجل تصفية العلاقة معه والتنكّر له.

1-"الأنا"و"الآخر" في علم الصورة المقارن:

يعدّ **الأدب المقارن** ذلك العلم الذي يميّز الشخصية القوميّة للأمّة، ويوضّح ملامحها توضيحاً كاملاً وذلك بالتمييز بين نتاجها وتراثها الأصيل، وبين ما استعارته من التيارات الأدبيّة، والأجناس والمذاهب المختلفة، ومع تطوّر النصوص وظهور نوع أدبي جديد موسوم بـ: أدب الرحلة، أزال غموض " **الآخر**"، فلم يعد يتّسم بالضبابية التي كان عليها من قبل، فأصبحت صورة شعب لدى شعب آخر ظاهرة للعيان، لهذا جاء ما يسمى **بعلم الصورة** المنبثق من الأدب المقارن.

2- تعريـف علم الصـورة :

يرتبط مفهوم الصورة بمفهـوم المرآة، التي تُعرف بأنّها:« **سطح يعكس كل ما يقوم أمامه فأيُّ شيءٍ يمتلك خاصية السطح العاكس فهو مرآة**»[1]، إنّ هذا التعريف العام للمرآة يُحيلنا إلى مفهوم الصورة، التي تمثل انعكاس لأصلٍ سابقٍ لها، فصورة " **الآخر** " في المرآة ما هي إلاّ انعكاس لصورة " **الأنا** "، نظرًا للتلازم والارتباط الوثيق بين هذين الكيانيين:« **كل صورة تنبثق عن إحساس مهما كان ضئيلاً بالأنا بالمقارنة مع الآخر وبهنا بالمقارنة مع مكان آخر، الصورة هي إذن تعبير أدبي عن إنزياح ذي مغزى بين منظومتين من الواقع الثقافي**»[2] ، وعليه يستجوب مقارنة صورة شعبٍ في أدب شعبٍ آخر، أو صورة شعبٍ في أعمال أديب، باستدعاء موطنين ولغتين مختلفتين حتى تتحقق المقارنة بين " **الأنا** " و" **الأخر**"، كما يدخل في تشكيل الصورة عدّة مكوّنات يستطيع القارئ أو الملتقي أن يُحدّد أهمها :

أ. ***الكلمات***: وهي التي تنقل صورة " **الآخر** " لنا، وهي حقول معجميّة تشكّل مفاهيم ومشاعر مشتركة من حيث المبدأ بين الكاتب وجمهوره، ولذلك علينا أن نميّز بين الكلمات النابعة من بلد الناظر (أي الدارس)، التي تفيد في تعريف البلد المنظور (أي المدروس)، والكلمات التي أخذت من لغة البلد

1- رجب (محمود): فلسفة المرآة، دارالمعارف مصر،ط1، 1994،ص15.
2- المرجع نفسه، ص93.

ونُقلت دون ترجمة إلى لغة البلد الناظر وإلى فضائه الثقافي وإلى نصوصه وخياله أيضاً[1].

ب.***النّمط***: يُعدّ شكلاً أولياً للصورة أو كاريكاتورياً، لكن هذا النّمط لا يمكن أن يكون حقيقياً في أغلب الأحيان بسبب تعاقب الأزمنة التي تفرض على هذا العنصر التعدّد والتغيّر[2]، وهذا خلاف لما هو متداول في النّصوص الأدبيّة التي تستدعي هذا المفهوم كصورة جامدة، تصلح لكلّ زمان دون أن يطرأ عليها تغيير.

ج. السمات والحركة والحديث والعلاقات الاجتماعية :

تتعدّى هذه العناصر التعريف البسيط لتحمِل لنا عدّة دلالات من بينها التعبير عن **"الآخر"**، وبذلك نجد الكثير من العلاقات داخل النّص الأدبي مفيدة من أجل دراسة **"الآخر"**، مثلاً: دراسة العلاقات الذكرية والأنثويّة ضمن الانتساب إلى ثقافات متنوعة (الرجل العربي يقيم علاقة مع المرأة الغربيّة أكثر من المرأة العربيّة مع الرجل الغربي) وهناك الوصف المخالف الذي يساعد على تقديم صورة الآخر من خلال ثنائيات متناقضة تدمج الطبيعة والثقافة مثلا: متوحش مقابل متحضّر، وبربري مقابل مثقف، وإنسان مقابل حيوان، ورجل مقابل إمرأة، وكائن متفوّق مقابل كائن ضعيف[3] .

د. وصف جسد "الآخر" ومنظومة قيّم هو مظاهر ثقافته بالمعنى الأساسي :

كوصف والتحدث عن الدين واللباس والموسيقى والمطبخ ... إلخ، وهنا يساعدنا على تطوّر الإنسان الناحية الثقافية، فنُواجه النّص الصوري بوصفه شاهداً ووثيقة عن الأجنبي، وبذلك تحاول دراسة الصورة فهم كيف النّص الذي يعدّ تطوّرا وصفياً وإدراكياً في الوقت نفسه، فنستطيع أن نتعرّف ما قيل عن ثقافة الآخر أو ما سكت عنه[4].

3-أنواع الصورة: تنقسم صورة الشعوب إلى قسمين :

أ. ***صورة شعب في أدبه*** **:** وهذا النّوع من الدراسات لا يتعدّى إطاره القومي واللّغوي فهو إذن: **« يبحث فنيات الأديب في طرق موضوعه أو فنيات**

1- حمود (ماجدة) : مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، منشورات إتّحاد كتّاب العرب،(دط)، دمشق- سوريا،2000 ص 250.

2- ينظر: ماجدة حمود، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، المرجع السابق، ص 252.

3- المرجع نفسه، ص 256.

4- المرجع نفسه،ص 256.

الأدباء في تناول الموضوع بالوصف والتحليل مثل: صورة الفرنسيين في أدبهم أو صورة المرأة الألمانية لدى أديب ألماني، أو صورة المرأة المصرية في روايات نجيب محفوظ أو في الأدب المصري عموما[1]» ، وهو النّوع الذي تكون فيه " **الأنا** " صورة " **للأنا** " ذاتها وتنطوي هذه الصورة على بعد معرفي مؤثر،ي إلى وعي الجماعة بذاتها بل يسهم في« **تشكيل هذا الوعي، فيصبح التعرّف المصاحب لتأمّل صورة المرآة مقدمة للفعل الخلاق، وباعثا على التغيير نحو الأفضل»**[2] ، ليرى الشعب صورة نفسه فيكتشف ما به من عيوب و يسعى إلى تصحيحها، وهنا تتجلى الوظيفة الحيويّة للصورة وعمادها الصلة بين الأدب والشعب.

ب.*صورة شعب في أدب شعب آخر:* لعلّ من الضروري وجود نسبة من الإهتمام المشترك بين شعبين لكي يكون أحدهم صورة في أدبه عن شعب آخر،فالأمم:**« لا تهتم إلاّ بالشعوب المجاورة لها أو التي تشترك معها في مسألة،أو أن يكون لها معها مصالح إقتصادية أو تريد كسب ودها أو تخشى بأسها»**[3]،وبذلك يكون هذا الإهتمام هو الدافع إلى رصد صورة علاقات شعوب متأثرة بشعوب أخرى، فالتأثير عامل مؤسّس لتشكيل تلك الصوّر كيف لا وهو العمود الفقري في الأدب المقارن الذي ينتمي إليه هذا النّوع من الدراسات.

وإذا كان النّوع الأوّل يرتبط أساساً بعامل اللّغة ولا يخرج عن دائرة قوميته فإنّ هذا النّوع من الموضوعات يتعدّى الإطار اللّغوي والمكاني فنجد« صورة فرنسا في بريطانيا العظمى، صورة روسيا في الحياة الثقافية الفرنسية، صورة إيطاليا في الأدب الفرنسي، صورة الجزائري في الأدب الفرنسي ... إلخ»[4] .

والملاحظ أنّ هذا النّوع من الدراسات يتكوّن من شقين:

ب-1- *صورة شعب كما يصوّره مؤلف ما من أمّة أخرى*:وتأتي هذه الصورة بعدما يتأثر أديب معيّن من شعبٍ بشعبٍ آخر،ونتيجة لتأثره يرسم

---

[1]- حنون (عبد المجيد): صورة الفرنسي في الرواية المغاربية، ديوان المطبوعات الجامعية، (دط)، الجزائر، 1986 ص61.

2- عصفور (جابر): المرايا المتجاورة (دراسة في نقد طه حسين)، دار قباء، (دط)،مصر، 1998،ص90.

3- حنون (عبد المجيد): صورة الفرنسي في الرواية المغاربية ،ص68.

4- ينظر: المرجع السابق ص، 61، 62.

صورة الشعب الذي تأثر به في أعماله الأدبيّة،مثل:«إسبانيا في أدب همنفواي،أو بريطانيا في أدب فولتير،أو صورة الشرق في أدب فيكتور هوغو،أو إيطاليا في أدب ستاندال»[1]وفي هذه الحالة يكون التركيز على حياة الكاتب ومدى صلته بالبلد المقصود ثمّ يبيّن كيف استقى معلوماته أو كيف رأى البلد رأي العين،وإلى أي حدّ كانت الصورة، التي رسمها لذلك البلد صادقة أو كاذبة.

ب-2- *صورة شعب في شكل أدبي معيّن لدى شعب آخر*:وتنتج عن طريق تأثير شعب في آخر وتركيز أدباء الشعب المتأثر على تصوير الشعب المؤثر في فن أدبي معيّن كالرواية،أو القصة،أو المسرحية،أو الشعر[2].

4-أنماط الصورة:

تمتلك الصورة الذهنية أو صور الشعوب في اصطلاح المقارنين أنماط (أشكال) هي:

أ-الهوس: وهو نمط يقدم الآخر على غير ما هو عليه، بل على وهم تأثر الأنا به، فتتشكل عند هذا الأخير صورة دونية عنه ذاته-الأنا-، وفي المقابل نظرة فوقية للأخر الأجنبي:« **تكاد تكون ظاهرة أو ممارسة شائعة، في كل مجتمع توجد ثلة دوما من الأفراد ممن لا وظيفة لهم سوى التدقيق في كل شيء عند الآخرين، ثم الحديث والنقد الموضوعي»**[3]، هو الحب الشغوف بالآخرين المختلفين، وهو شبيه بهوس الانجليز بفلسفة الأنوار الفرنسية، وهوس الكتالونيين بثقافة الأندلس، أو حتى شعور العرب مؤخرا بتفوق الغرب، فهو شغف يوهم بتفوق الأخر ودونية الأنا.

ب-الرهاب:

هو اعتبار الآخر أقل مرتبة من الأنا، وإعلاء مرتبة الأنا والتمركز حولها، في مقابل تهميش الآخرين والأجانب حضارة ولغة وعرقا، وهو:« **الرهاب عكس الهوس، ويؤدي إلى اعتبار الواقع الأجنبي متدنيا مقابل تفوق الثقافة الأصلية»**[4]، ويعبر الرهاب عن اغترار الأنا بذاتها، في مقابل تهميش الشعوب الأخرى مهما

1- حنون(عبد المجيد): صورة الفرنسي في الرواية المغاربية ،ص69.

2- المرجع نفسه،ص69.

- المزروعي(فاطمة): الهوس بالآخر، المثقف(صحيفة)، العدد55، ماي 2015، ص3.1

- هنري باجو(دانيل): الأدب العام والمقارن، تر: السيد(غسان)، منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق، ص4.107

كانت من حيث العراقة الحضارية والتفوق الثقافي، والأصالة العرقية، وهي صورة ذهنية مترسخة ومتوارثة.

ج-التسامح:

هو التعامل مع الآخر على أنه موازي للأنا، ومتساويا معه، ومكملا له أحيانا، أي:« **يحكم عليه بصورة ايجابية، ويندرج ضمن الثقافة الناظرة التي تعد بدورها ايجابية، ومكملة مع للثقافة المنظورة، فالتسامح هو الحالة الوحيدة للتبادل الحقيقي والثنائي»**[1]، ويفرض هذا النمط من التعامل الرفق بالآخر الأجنبي، والاعتراف بفضله في المبادلات المعرفية والأدبية، وهو نمط موجب من العلاقات، لا متفوق فيها ولا مغلوب، في تكامل وانسجام وتأثير وتأثر متبادلين.

د-الانبهار:

وهو الافتتان بالآخر، وهو حالة معرفية انفعالية قوامها التعلق المطلق والأعمى بالثقافة الأخرى أو باللغة الأخرى أو العرق الآخر:«**يلجأ الشخص أو الجماعة إلى التمادي والانبهار كنوع من التخفيف على النفس ومواساتها، وفي حالة الانبهار يظهر عامل التأثر ويغيب عامل التأثير ثم يسعى للتقليد الأعمى»**[2]، يرافق الانبهار بالآخر اختفاء للهوية واحتقار للنفس، مع إجلال للآخر الأجنبي واعطائه سمات الكمال، فالأنا المنبهرة ترى الثقافة الأخرى مقدسة ومعصومة، وفي قمة المثالية، والسمو لا يشوبها نقصان.

5-وسائل تلقي الصورة:

تباين الثقافات واللغات بين الأمم، وسيلة لمد أواصل العلاقات، فالاحتكاك بالآخر يؤدي إلى امتزاج الثقافات والأفكار، ومن ثم نقل صور الشعوب ومعرفتها عند الآخرين، لهذا وجب معرفة الوسائل المساعدة على تلقي صور الآخر:

أ-أدب الرحلة:

من أبرز العوامل المؤدية إلى نقل وتلقي صورة الآخر المختلف، حيث أن الترحال والتعرف على مختلف الشعوب والأعراق والسلالات، يكون صورة ذهنية عند المرتحلين، توصل إلى مدارك الآخر. وأدب الرحلة من الفنون الأدبية التي شاعت منذ القدم، وهو شبيه بالمذكرات واليوميات مع لمسة الإبداع والإمتاع، ومن أهم مناهل الكشف عن المجهول، والبحث عن المعرفة، ومن خلاله

---

1 - هنري باجو(دانيل): الأدب العام والمقارن، ص108.

2 -عبد الجواد أبو حلاوة(مجد السعيد): الانبهار بالآخر والافتتان به.....، مجلة دراسات عربية في التربية وعلم النفس، العدد68، ج2،ديسمبر 2015، ص32

يمكن اكتشاف الآخر في قالب تعبيري، فالذات المسافرة تسرد كل ما يصادفها مع مقارنتها بالأنا، فالرحلة تستدعي الآخر لا محالة، فأدب الرحلة باب من أبواب معرفة الشعوب البعيدة والمجاورة، بعاداتها وتقاليدها ودياناتها وأحوالها، وتكون الصورة ذهنية حولها.

ب-الترجمة:

تلعب الترجمة دورا فعالا في نقل الأفكار والوعي والرؤى والأفكار والعادات والقيم ، من الثقافة الأصلية إلى لغات أخرى، فهي بهذا تتيح للشعوب معرفة بعض، والاطلاع على ثقافات الآخرين، زيادة على دورها في الاتصال ونقل التأثيرات، فهي وسيلة تفاعل حضاري بامتياز، ولولاها لما عرف الأدب الأجنبي في البلاد المحلية، وهي بعد هذا محاولة لمعرفة الآخر ونقله بواصلة اللغة القومية.

ج-الاستشراق:

وهو حركة علمية وفكرية غربية، تبين اهتمام العالم الغربي بالثقافة الشرقية، ومحاولة دراسته: علومه وثقافته وعقائده ولغاته وحضارته، آملة في معرفة أسراره، من خلاله عرفوا الأخر العربي المسلم، لكن المستشرقين حرصوا على نقل الصورة السلبية ونقاط الضعف، دون الجانب المشرق، فأظهروه دونيا وكسولا ومتآمرا وقاسيا، مولعا باللهو والمجون والجنس، في مقابل الرقي والتحضر الغربي.

د-الحروب:

أدت النزاعات حول الأراضي على مدى التاريخ إلى نشوب الحروب، كالحروب الصليبية مثلا، التي كان لها الدور في تأجيج الصراع العقدي بين العرب والغرب، فأدت إلى تصورات متبادلة عن الآخر-العربي والغربي- ورسم صور مشوهة عن الآخر عند الطرفين، وهو الأمر ذاته إذا تذكرنا فتح الأندلس وغيرها من الفتوحات.

تمت***(أ.جميدة سليوة)***